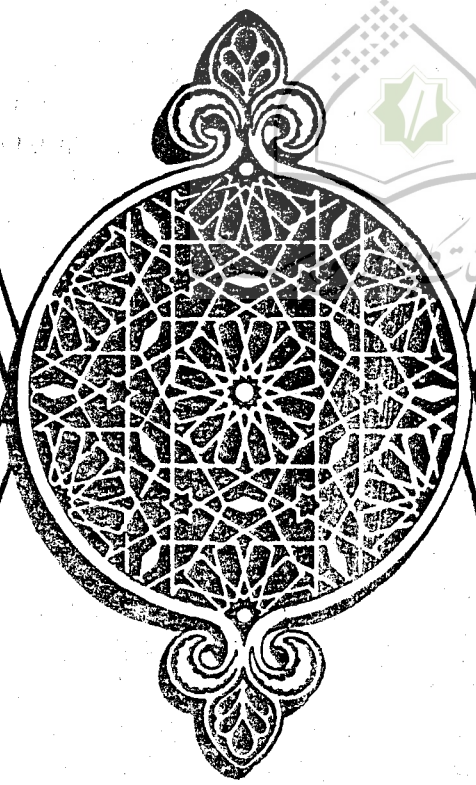

دراسات قرآنية

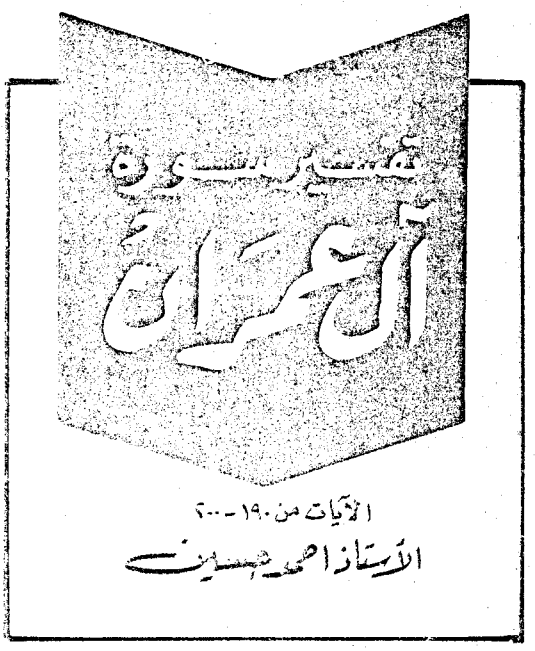

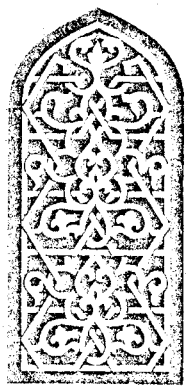

بسم الله الرحمن الرحيم

إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب . الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ويتفكرون فى خلق السموات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك فقنا عذاب النار . ربنا انك من تدخل النار فقد أخزيته وما للظالمين من أنصار . ربنا اننا سمعنا مناديا ينادى للايمان أن آمنوا بربكم فآمنا ربنا فاغفر لنا ذنوبنا وكفر عنا سيئاتنا وتوفنا مع الأبرار . ربنا وآتنا ما وعدتنا على رسلك ولا تخزنا يوم القيامة انك لا تخلف الميعاد . فاستجاب لهم ربهم أنى لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى بعضكم من بعض فالذين هاجروا واخرجوا من ديارهم وأوذوا فى سبيلى وقاتلوا وقتلوا لأكفرن عنهم سيئاتهم ولأدخلنهم جنات تجرى من تحتها الأنهار ثوابا من عند الله والله عنده حسن الثواب . لا يغرنك تقلب الذين كفروا فى البلاد . متاع قليل ثم مأواهم جهنم وبئس المهاد . لكن الذين اتقوا ربهم لهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها نزلا من عند الله وما عند الله خير للأبرار . وان من اهل الكتاب لمن يؤمن بالله وما أنزل اليكم وما انزل اليهم خاشعين لله لا يشترون بآيات الله ثمنا قليلا أولئك لهم اجرهم عند ربهم ان الله سريع الحساب . يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون .

●●●

إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب . الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ويتفكرون فى خلق السموات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك فقنا عذاب النار .

الاسلام فكر كله وعلم كله :

روى الطبرانى عن ابن عباس رضى الله عنه ، قال : أتت قريش اليهود فقالوا : بم جاءكم موسى من الآيات ؟ فقالوا عصاه ويده بيضاء للناظرين ، وأتوا النصارى فقالوا : كيف كان عيسى ؟ قالوا : كان يبرىء الأكمه والأبرص ويحيى الموتى : فأتوا النبى فقالوا : ادع لنا ربك يجعل لنا الصفا ذهبا ، فدعا ربه ، فنزلت هذه الآية « **ان فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب** » فليتفكروا فيها . انتهى وقد توقف البعض أمام مدى حجية الحديث ، على أساس أن هذه المحاورة بين المشركين ومن سألوهم ، والطلب الذى طلبوه من سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام من تحويل (جبل الصفا) إلى ذهب كل ذلك يفيد أن الآية مكية ، مع أن المقطوع به أن سورة آل عمران مدنية ونحن ندع لائمة المتخصصين فى علم الحديث تحقيق هذا

الأمر ، ولكنا من ناحيتنا نقول : إن فحوى الحديث وما اشتمل عليه ، صحيح مائة فى المائة ، وهو يطابق ما ورد فى القرآن الكريم ، والفارق الفعلى والأساس بين الاسلام واليهودية يتلخص فيما اشتمل عليه الحديث ، فحيث يمكن أن يقال من الملحدين أن الايمان بالمسيحية واليهودية يقوم على أمور ينكرها العقل البشرى ، كالقول بأن المسيح كان يحيى الموتى وموسى شق البحر بعصاه ، فان الاسلام ونبى الاسلام ، كانت معجزته الكبرى عقلية تخاطب العقل وتفحمه حسب مقاييسه التى قررها لنفسه وأطلق عليها « لغة المنطق » وعلى ذلك فمعجزة القرآن ، ليست مجرد معجزة سماعية ، تدور حول أمور خارقة لا يسيغها العقل ، وانما هو كتاب حى دائم يتحدى بثباته ومحتوياته العقل البشرى فى كل زمان ، وها هو العالم الاسلامى اليوم يغص بعشرات الألوف ممن درسوا العلوم الحديثة بل وأوغلوا فيها ، ومع ذلك لا يجدون فى الاسلام وسيرة الرسول حادثا واحدا يمكن للعقل البشرى أن يعترض عليه ، باستثناء ما ورد من حديث عن معجزات الرسل السابقين ، ونحن الذين بالقرآن الكريم مأمورون أن نؤمن بكل ما رواه القرآن عن ابراهيم وموسى وعيسى « **لا نفرق بين أحد من رسله** » ولا يظن ظان أن الايمان بما رواه القرآن عن خوارق جرت على يد الرسل السابقين الموغلين فى القدم شىء يتعارض مع لغة العقل ، فهذا العقل يقرر أنه كما يكون الاثبات بدليل ، فكذلك النفى لا يكون إلا بدليل ، فأى دليل يمكن أن يسوقه العقل ، على أن حادثة « ما » يقال إنها حدثت منذ ألوف السنين انها لم تحدث ، مثل هذا النفى يفتقر إلى دليل ، فلم يبق إلا القول بأن العقل الحديث لا يقبلها ، ويكون الرد ، ومن أنى للعقل أن يحكم ويجزم ، بأن الأمور كانت تسير منذ ألوف السنين ، على غرار سيرها فى عصرنا المادى الحديث ، ولأسق نموذجا واحدا يقطع بأن بعض الأمور التى يتصور أنها مستحيلة فى وقت من الأوقات تصبح شيئا عاديا فى وقت آخر ، فعندما قال « كولمبس » فى وقت من الأوقات أنه يمكن الوصول إلى الشرق عن الطريق السير فى الغرب ، اعتبر علماء عصره ، أن هذا القول تخريف وجنون ، ولأدع هذا المثل حتى لا يقول قائل ، إن « كولمبس » فى هذا كان يطبق نظرية كروية الأرض ، وإذن فلنضرب مثالا آخر ، هل كان يوجد عقل يتصور أن الانسان إذا ارتفع بضع مئات من الكيلو مترات ، فانه لا يقع أو يسقط وإنما يمكن أن يظل سابحا ومعنى ذلك ، أن العقل يخرج عن حدوده ولا يتحدث بلغته عندما ينكر واقعة حدثت منذ ألوف السنين بغير دليل ، أو أن يكون دليله الوحيد أن مثل هذه الأمور لا تحدث هذه الأيام ، فان عدم حدوثها اليوم ، لا يقطع بأنها تحدث فى القديم فى ظل ظروف كونية مغايرة ، فعندما يقص علينا القرآن الكريم قصص موسى وعيسى وإبراهيم ، فنحن نقول امنا وصدقنا فاكتبنا مع الشاهدين ، ولكنه (ولا لوم ولا تثريب) هو إيمان بالغيب حيث يتوقف العقل لأنه يصبح فى غير ميدانه **وليس كذلك الاسلام** .

ومن هنا تأتى عظمة الاسلام وسر تفوقه وأن المستقبل له لأنه دين العقل وحيث لم يبق على النصرانية واليهودية إلا شهادة القرآن لهما بأنهما ديانتان سماويتان ، فى وقت كان فيه حملة القرآن ، هم الذين فتحوا الدنيا شرقا وغربا ، ولولا شهادة القرآن لهما لأنكرهما البشر ، فى عصر النور والعقل والعلم ، حيث عاش الاسلام ونما وينمو وسوف ينمو ، بالرغم من جحد اليهود والنصارى ، وسيكون هو الذى يدحر الالحاد والمادية ، لأنه مبنى على العقل ويخاطب العقل ، فلينتشر العلم وليعلو ويعلو فسيكون ذلك استجابة مباشرة للقرآن ولأمثال هذه الآيات التى نحن بصددها بالذات .

ولنرجع إلى ما أشرنا إليه من أن ما قيل فى سبب نزول هذه الآيات من حيث إظهار التباين بين اليهودية والنصرانية من حيث استنادهما إلى معجزات خارقة ، حدثت فيما مضى وانتهى أمرها ، وبين الاسلام ومعجزته العقلية التى لا تنتهى ، قلنا أن معنى الحديث الوارد بهذا الخصوص كما ورد فى سورة الاسراء الآيات ٨٩ وما بعدها « **ولقد صرفنا فى هذا القرآن من كل مثل فأبى أكثر الناس إلا كفورا . وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا . أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها تفجيرا . أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفا أو تأتى بالله والملائكة قبيلا أو يكون لك بيت من زخرف أو ترقى فى السماء ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتابا نقرؤه قل سبحان ربى هل كنت إلا بشرا رسولا** » فأنت ترى أنه حيث طلب من سيدنا محمد ﷺ أن يجىء لمشركى قريش بالخوارق ، فقد رد القرآن بأنه هو المعجزة ، وهو ما ثبت على مر القرون ومن ومن هنا قلنا أن الحديث لا يخرج عن نص القرآن وندع للمتخصصين فى فن الحديث ما زاد على ذلك .

إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب .

الألباب : جمع لب ، واللب هنا يعنى العقل ذلك أن لب كل شىء هو محل حياته ، ومحدد صفاته وخصائصه وشخصيته ، وهذا هو الدور الذى يقوم به العقل فى حياة الانسان ، ويكون معنى هذه الآية وما تلاها من آيات ، أن لا تلتمسوا أيها البشر خوارق تصدع عقولكم لكى تؤمنوا بالله ، بل على العكس من ذلك ، فان التفكر وتعقل كل ما حولكم من ظواهر الطبيعة وشتى العوالم والكائنات ، كفيل بأن يدلكم على الله الخالق وقدرته اللا نهائية .

وهكذا دعا الاسلام العقل لينطلق فى ملكوت السماء

والأرض ، باحثا دارسا منقبا ، فلا عجب أن أحدث الاسلام أكبر ازدهار لحضارة العلم وسيبقى كذلك إلى أبد الآبدين ، فلا يوجد مسلم واحد يتصور أن هناك تعارضا بين أن يعلم ويعلم إلى مالا نهاية وأن يكون فى ذات الوقت مسلما عميق الايمان ، حيث رأت الكنيسة فى فهمها للمسيحية ، أن هناك تعارضا بين الفكر والعلم والايمان المسيحى ، فكان موقفها يتلخص فى التعبير التالى فى العصور الوسطى : « أطفىء سراج عقلك واعتقد » وكانت النتيجة أن الحضارتين الاغريقية والرومانية انقرضتا فى أوربا فسادها الظلام ، ولولا المسلمين لجهلت الدنيا ، أنه كان فى الدنيا فكر وعلم وحضارة .

حديث شريف : جاء فى تفسير القرطبى أنه روى عن السيدة عائشة رضى الله عنها ، قالت : **لما نزلت هذه الآية على النبى ﷺ قام يصلى ، فأتاه بلال يؤذنه بالصلاة فرآه يبكى ، فقال : يا رسول الله أتبكى وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تاخر ؟ فقال : يا بلال افلا اكون عبدا شكورا ، ولقد انزل الله على الليلة آية « إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب » ثم قال ويل لمن قراها ولم يتفكر فيها .**

الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ويتفكرون فى خلق السموات والأرض :

اعلم حفظك الله أن الانسان مذ يولد حتى يموت لا يخرج أمره عن هذه الأحوال الثلاث : القيام والقعود والرقاد ، ولما كان العقل هو جزء من الانسان ، وعمل العقل هو الذكر والتفكر ، فما على المؤمن إلا أن يعمل عقله على الدوام ما بين ذكر وفكر فيكون ذلك هو ذروة العبادة وما يبلغ بالانسان إلى ذروة الرضا والراحة ، والعزة والكرامة ، لأنه يكون عائشا مع ربه وخالقه وذهب نفر من المفسرين ، إلى أن ذكر الله هنا مقصود بها الصلاة ، وراح البعض يستخلص بعض أحكام الصلاة ، إذا لم يستطعها قائما ، فقالوا يصلى قاعدا فان لم يستطع فراقدا إلى غير ذلك من أحكام الصلاة .

والرأى عندنا أن ذلك من قبيل تفسير العام بالخاص (بدون مخصص) فالذكر أعم من الصلاة ، والفكر أعم من الاثنين وفى القرآن الكريم حديث عن الذكر فى كل وقت وحال باعتباره أمرا يغاير الصلاة ، قال تعالى :

« فاذا قضيتم الصلاة فانكروا الله قياما وقعودا وعلى جنوبكم » .

ويتفكرون فى خلق السموات والأرض .

ومرة أخرى أنظر يارعاك الله إلى سعة هذه الآية ، وكيف تدفع المؤمن للتفكير إلى ما لا نهاية ، فى طبيعة الكون وخلقه وتطوره ، وأنها تتسع لكل علوم الدنيا ومعارفها .

ربنا ما خلقت هذا باطلا .

هذا هو ما ينتهى أى تفكير وتأمل فى ظواهر الكون ، فيتعمق إيمان الانسان بالقدرة الخالقة المبدعة تلك أن طبيعة العقل وخصيصته ولغته ، تقوم على سعيه الدائم لمعرفة السبب خلف اى مسبب ، والعلة وراء أى معلول ، لا يهدأ العقل ولا يستريح إذا رأى مجرد « ورقة » تتحرك إلا إذا بحث عن السبب فى تحريكها أهو الهواء ، أو يد كائن أو أى شىء آخر وهذا هو شأن العقل بالنسبة لأتفه الأشياء ، فاذا سمع صوتا أى صوت ، فلا يمكن أن يهدأ قبل أن يدرك مصدر الصوت وما الذى أحدثه أى أن العقل لابد أن يصل من أى حدث إلى محدثه ، فاعجب لأقوام يدعون العلم و « والعقلانية » يريدون منك ان تقول إن هذا الكون بأرضه وسماواته وكائناته قد خلق ووجد بدون خالق أو موجود ولغير علة ، فاذا أصح هذا فان العقل ينهدم من اساسه ولا يستطيع أن يصل إلى أى نتيجة ، فالنتائج لابد لها من مقدمات ، وإلا أصبح كل شىء حولنا ، بل أصبحنا نحن ، عبثا فى عبث ، ووهما ولعبا وهزلا ، وهذا هو ما يرفضه المؤمن لأن العقل يأباه ، ما خلقت هذا باطلا اى لا يمكن أن يكون كل ذلك « **لغير حكمة وغاية** » والباطل ضد الحق ، فاذا كان الحق هو الدائم الثابت الخالد فان الباطل هو الزائل المضطرب الفانى :

قال الشاعر الجاهلى لبيد :

الا كل شىء ماخلا الله باطل
وكل نعيم لا محالة زائل

سبحانك فقنا عذاب النار .

بلاغة القرآن

لا نعدو الحقيقة إذا قلنا : إن اللغة العربية التى لا تزال حية مزدهرة حتى اليوم ، فذلك بفضل القرآن وسره المعجز ، وقد أخذت البلاغة والفصاحة وكل علوم اللغة مسارا جديدا هو الذى ابقاها وسوف يبقيها وكلما تصور الناشئون ، أن باستطاعتهم أن ينالوا من اللغة العربية ، إذا بهم يسقطون مندحرين وتبقى اللغة العربية مرفوعة اللواء ، كاملة السيطرة والهيمنة على الحياة ، ذلك أن القرآن الكريم هو أساسها المكين .

من التحدث عن الغائب إلى صيغة المتكلم :

أنظر إلى هذا التعبير الذى نحن بصدده ، تدرك كيف سبق القرآن الكريم ، شأنه فى كل شىء ، ما يتصورونه من أساليب العصر فى أرقى فنون التعبير ، فقد حدثنا القرآن حديث « الغائب » ، وهو يصوره لنا المؤمنين وهم « **يتفكرون فى خلق السموات والأرض** » ولكى يعطى الصورة مدى روعتها وروعتها ، نراه ينتقل من صيغة التحدث عن المؤمنين إلى ما يقوله المؤمنون بعد التفكير والتأمل ، فينطقون بـ « **صيغة المتكلم** »

سبحانك فقنا عذاب النار :

سبحانك : أى تنزهت عن كل سوء وعلا شأنك وتأكدت وحدانيتك ، وعندنا أن كلمة سبحان الله تعنى كل ما يليق بقدرته وكماله ، وإن كان الجمهور يقفون عند معنى التنزيه وهو الأقرب للغة .

فقنا عذاب النار : دعاء إلى الله سبحانه وتعالى أن يقى المؤمن وبلات جهنم ، جزاء إيمانه « **ربنا انك من تدخل النار فقد أخزيته وما للظالمين من أنصار** » .

أخزيته : من الفعل خزى يخزى خزيا : إذا وقع فى بلية والاسم « الخزى » والمعنى ، أن من يدخله الله النار فقد أخزاه والخزى يتراوح فى المعنى من مجرد الاستحياء ، إلى الاهانة والاذلال ، وتصل إلى معنى الاهلاك ، والذى يحدد درجتها هو المقام الذى تستعمل فيه .

وما للظالمين من أنصار : حكم قاطع من الله عز وجل ان الظالم لا يمكن أن يكون له أنصار وحتى لو ناصره البعض نفاقا ، فعلى أساس أن ما فعله هو العدل ، أى أنه يستحيل من يؤيد الظلم لمحض كونه ظلما ، فلا بد أن يلبس لباس العدل (ولو زورا وبهتانا) قبل أن يوجد إنسان واحدا يناصره والمجتمعات لا تقوم إلا لالتماس البشر لاقامة العدل ، فقيل بحق : العدل أساس الملك وتنهار المجتمعات ، إذا تفشى فيها الظلم ، وتقوم العقيدة الدينية ، التى هى فطرة كل نفس « سوية » على أساس وجود « **إله عادل** » يقيم العدل فى حياة آخرة .

ربنا إننا سمعنا مناديا ينادى للايمان أن آمنوا بربكم فآمنا .

المعنى جد واضح وهو أن المؤمنين بمجرد ان سمعوا الدعوة إلى الايمان ، فقد انفتحت قلوبهم على الفور ، فلبوها واستجابوا لها ، وقد دار التساؤل حول المنادى إلى الايمان من هو ، فقال البعض : هو سيدنا محمد ﷺ وان صدق ذلك فى حياته ، فما القول فيمن جاء بعد ذلك ، ومن هنا قال بعض آخر المنادى هو القرآن ، ثم جاء القول وهو إن من يسمع القرآن فكأنما يتلقى الدعوة عن سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام .

« **ربنا فاغفر لنا ذنوبنا وكفر عنا سيئاتنا** » وبديهى ان المؤمن لا يؤمن إلا لكى يتلقى جزاء إيمانه من هنا فقد طلبوا جزاء إيمانهم وهو أن يفوزوا فى الآخرة بالنعيم والجنة ، ولما كانت الجنة لايدخلها إلا من كان طاهرا من الأرجاس مبرأ من الذنوب والخطايا ، ولما كان ذلك يشبه أن يكون متعذرا إن لم يكن مستحيلا لترصد الشيطان للانسان ، وطبيعة الانسان وما أودع فيه من شهوات وغرائز وضعف مما يؤدى به حتما إلى الخطأ ، ومن هنا فليس أمام المؤمن إلا أن يلجأ إلى الله ويفزع إليه ليغفر الذنوب ويكفر عن السيئات والسيئة مفرد سيئات ، وهى كل ما يسوء وكل انحراف عن تطبيق أوامر الله وتجنب نواهيه لا يمكن إلا أن ينتهى باساءة ، والذنب هو التقصير والخطيئة ، وطلب المغفرة والتكفير بمعنى واحد وهو الستر ، والستر يكون فى الدنيا ، أما فى الآخرة فيكون باسقاطها والتجاوز عنها .

وتوفنا مع الأبرار :

احتراز لا مناص منه فالانسان حتى بعد أن يغفر الله ذنوبه ، كما الشأن بالنسبة لمن يحج حجا مبرورا ، إذ يطهر من الذنوب ويعود كما ولدته أمه ، ولكن ذلك لا يمنع بحال أن يقع من جديد فى المعاصى ، فالعبرة دائما بالخواتيم ، وقد يعيش الانسان طول حياته مؤمنا ، وفى لحظة واحدة ينقلب (والعياذ بالله) إلى الكفر ، ومن هنا كانت الدعوة إلى الله لا تتم الا بعبارة : « **وتوفنا مع الأبرار** » أى واجعل خاتمة حياتنا ، عندما نستوفى أجلنا ، اجعل هذه الخاتمة سعيدة بأن نكون ممن تصفهم بالأبرار فجزاؤهم معروف ومقرر « **ان الأبرار لفى نعيم** » والأبرار هم المحسنون فى أعمالهم ، وقد سبق تعريف البر فى سورة البقرة بمناسبة آية « **ليس البر** » .

وآتنا ما وعدتنا على رسلك ولا تخزنا يوم القيامة إنك لا تخلف الميعاد :

بعد أن فرغ المؤمنون من الدعاء بما يرجونه لأنفسهم فى الآخرة ، بأن يغفر الله لهم ذنوبهم ويكفر عنهم ما وعدهم به على لسان الرسل ، ويكون السؤال : ما هو هذا الشىء الذى يزيد عما طلبوه من قبل ، وما سوف يطلبونه من بعد « **ولا تخزنا يوم القيامة** » فلابد أن يكون هذا المطلوب ، شىء يغاير كل ما سوف يناله المؤمن يوم القيامة ، فما هو هذا الشىء ؟

إنه النصر فى الدنيا على غير المؤمنين .

نحن نأخذ بقول من قال : إن هذا الشىء الذى يرجوه المؤمنون من الله سبحانه هو « النصر فى الدنيا » فسورة آل عمران كلها قد نزلت بسبب حرب دارت رحاها بين المؤمنين والكافرين ، وقد انتصر المؤمنون فى أولها فلما أن خالف بعضهم وعصى فقد حجب الله عنهم النصر ، فأما وقد عفا الله عنهم وصفح ، وأما وقد دعوه أن يغفر لهم ذنوبهم ، فقد راحوا يسألونه النصر الذى وعد الله به المؤمنين فى الدنيا ، قال تعالى : « **وأخرى تحبونها نصر من الله وفتح قريب** » وأما نص الوعد فقوله : « **إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم** »

ويعزز هذا الرأى فى تصورنا ما ختمت به الآية من قول المؤمنين « **إنك لا تخلف الميعاد** » وتلك قضية مؤكدة لدى المؤمن وعليها يقوم الايمان من أساسه ، بأن من عمل للجنة فلابد واصل إليها فى الآخرة ، وإنما النجاح والرزق والنصر

مركز تحقيقات كامپيوترى علوم اسلامى

فى الدنيا ، فتلك أمور علقها الله على مطلق مشيئته ، يمنحها وفقا لحكمة يعرفها وغاية اختص بعلمها ، قال تعالى : « **ينصر من يشاء** » فحق للمؤمنين أن يدعو طالبين النصر فى الدنيا .

ولا تخزنا يوم القيامة :

قدمنا أن المؤمنين يوقنون أن من يدخله الله سبحانه وتعالى جهنم فقد أخزاه ، وقد فسرنا الخزى أنه يبدأ من الامتهان والاذلال والفضيحة ، حتى يندرج تحت الكلمة معنى الاهلاك ، وهم هنا إذ يركزون دعاءهم فهم يسألون الله ألا يخزيهم يوم القيامة أى لا يسئ إليهم بأى نوع من الاساءات معنوية كانت أو مادية .

إنك لا تخلف الميعاد :

وينتهى الدعاء باقرار صفة من صفات الالوهية والربوبية ، بأن قوله الحق ، ووعده الصدق ، وقد حاول بعض المفسرين القدامى أن يتساءل وهل فى ذلك شك وعندنا أن تقرير الواقع المحقق بالنسبة لله سبحانه وتعالى ، لا يعنى الشك فى صفاته ، فعندما نقول « انك عليم قدير » فلا يعنى ذلك شكا فى علمه أو قدرته وإنما هو تعبد لله وتقرب بذكر صفاته ، ومخاطبته بأنه « لا يخلف الميعاد » من هذا القبيل .

فاستجاب لهم ربهم انى لا اضيع عمل عامل منكم من ذكر او انثى بعضكم من بعض .

فاستجاب بمعنى يستجيب وسوف يستجيب .

حاول نفر من المسلمين فى بعض العصور (من باب الدفاع عن النفس) أن يصوروا أن الأمر فى هذه الآية ، خاص بالمعاصرين لسيدنا محمد ﷺ وحقا كان القرآن ينزل بمناسبة معينة ، ولكن القرآن الكريم قد جاء عاما لكل زمان ومكان ، ولذلك كان التعبير بصيغة الماضى يعنى أحيانا الحاضر والمستقبل أيضا ، ذلك أن هذه الأزمنة الثلاث خاصة بالانسان وعمره المحدود ونقصه المشهود فكان له ماض وله مستقبل ، اما الله عز وجل فتنزه عن أن يكون له ماض او يكون له مستقبل ، وإنما هو الله القدرة المطلقه ، والكمال المطلق ، فهو إذا خاطبنا بلغتنا على قدر عقولنا ، فلا يجب أن يغيب عن وجداننا ولو للحظة واحدة أنه شأنه غير شأننا ، فاذا تعلل أقوام بأن صيغة الماضى فى كلمة « **فاستجاب** » تعنى أن القول خاص بأقوام معينين ، فهو جدواهم ، فالقول موجه للمؤمنين فى كل زمان ، ينكرون ويتفكرون ثم يرفعون أكف الضراعة إلى الله ، فيستجيب لهم وإذا كانت هذه الآية الكريمة قد نزلت بسبب المؤمنين فى عهد رسول الله فقد نزلت عامة شاملة لكل زمان ومكان .

أنى لا اضيع عمل عامل منكم من ذكر او انثى :

وليس أدل على ذلك من أن الله سبحانه وتعالى قرر سنته الخالدة ولن تجد لسنة الله تبديلا ، بأنه مسجل عمل اى انسان ، ذكر كان أو أنثى ، فى عهد رسول الله ، أو بعد عهده إلى أبد الآبدين ، وإنه لا يضيع أبدا أجر العاملين (أيا كانوا) وأيا كان عملهم ، وإن كان السياق يفيد فى الآية التى نحن بصددها ، أن الأعمال الحسنة والخيرة لن تضيع أبدا ، فالقاعدة كذلك بالنسبة للأعمال الشريرة : قال تعالى : « **من يعمل مثقال ذرة خيرا يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره** » فاذا كانت الآية التى نحن بصددها ، تشير للذكر والأنثى ، فان « **من** » التى تعنى الاشارة إلى مجرد الكائن ، أعم وأشمل وقال تعالى : « **وان ليس للانسان إلا ما سعى وان سعيه سوف يرى . ثم يجزاه الجزاء الأوفى** » .

ومرة أخرى يطلق الله سبحانه وتعالى القول بالنسبة لجنس « **الانسان** » وهكذا نرى أنفسنا بازاء مبدأ ثابت وقاعدة مقررة يمتاز بها الاسلام على سائر ما عرفت البشرية من أديان وسوف تعرف من مذاهب (كالماركسيه) مثلا ، فلا أجناس ولا قوميات ، ولا طبقات ، بل ولا ذكورة أو أنوثة ، وإنما هو مقياس واحد لكل البشر وهو العمل الصالح الذى سوف تعرض الآية لنماذج منه ، ولكننا قبل أن نتعرض لهذه النماذج من الأعمال الصالحة ، نتوقف أمام .

بعضكم من بعض :

جملة عربية مفيدة لما تنطوى عليه من معنى وهى مؤلفة من مبتدأ وخبر ، وهى تقرر الحقيقه الأبدية وهى وحدة الجنس البشرى ، ولكنها إذ تذكر بمناسبة الذكورة والأنوثة ، فهى تقرر الطبيعة الواحدة للجنسين ، وان كلا منهما بعض الآخر ، وهى حقيقة يعيشها كل إنسان فلولا المرأة ما كان الرجل ، ولولا الرجل ما كانت المرأة ، وصدق الله العظيم إذ يقول : « **بعضكم من بعض** » وفى كتاب كتبناه منذ أكثر من أربعين سنة بعنوان « **الزواج والمرأة** » وأعدنا نشره ملخصا منذ بضعة أعوام ، تحت عنوان « **حقوق المرأة فى الاسلام** » تفضل المجلس الأعلى للشئون الاسلامية بنشره ، وقد بينا فى هذا الكتاب بأسانيد من الكتاب والسنة المساواة المطلقة بين الرجل والمرأة « بعضكم من بعض » ولكن « المساواة فى الطبيعة » ، لا تعنى بحال من الأحوال « المساواة فى الوظيفة » فلكل من الذكر والأنثى دوره فى الطبيعة ، فالرجل يشارك الأنثى فى عملية « الانجاب » ودوره بعد ذلك هو أن يحمى الأنثى ويعاونها على القيام بأقدس مهمة فى الوجود وهى إعداد الطفل ليكون إنسانا صالحا .

ولما كانت السورة الآتية هى سورة النساء ولما كانت آيتها الأولى تشير لهذا المعنى ، فنحن نرجىء حديثنا المطول عن هذا الموضوع ، إلى حديثنا القادم بمناسبة سورة النساء .

ونكتفى اليوم بالاشارة إلى عظمة الاسلام وأنه لا يمكن بل يستحيل أن يكون من صنع بشر ، فحيث درج البشر فى القديم على الغض من شأن المرأة ، حتى تساءلت بعض المجامع المسيحية فى أوروبا فى العصور الوسطى « هل للمرأة روح كالرجل « واعتبرت » احبولة الشيطان » وحظر عليها دخول الكنائس . أما فى جزيرة العرب حيث انبثق الاسلام ، فقد كانت الأنثى تدفن حية فى طفولتها ، وجاء الاسلام يرفع المرأة مكانا عليا ، وبعد أن زالت حماسة الاسلام الأولى وحرارته لم يستطع أكثر العلماء علما ورفعة أن يتابع التعاليم الاسلامية ، وهى تقرر « **بعضكم من بعض** » ولأنقل لك نص ما قال به علامة من فطاحل علماء المسلمين ، قال القرطبى فى تفسيره الكبير :

« **بعضكم من بعض** » أى دينكم واحد ، وقيل : بعضكم من بعض فى الثواب والأحكام والنصرة وشبه ذلك . وقال الضحاك : رجالكم شكل نساؤكم فى الطاعة ، ونساؤكم شكل رجالكم فى الطاعة ، نظير قوله تعالى « **والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض** » ويقال فلان منى أى على مذهبى وخلقى ومن هنا أرجأنا حديثنا المستفيض عن موضوع المرأة ومكانتها إلى مستهل سورة النساء .

الشيخ رشيد رضا وحقوق المرأة :

وقد كان أول ما لفت نظرنا الى المرحوم الشيخ رشيد رضا ، وفهمه العميق لروح الاسلام ، ما كتبه فى كتابه « **الوحى المحمدى** » عن حقوق المرأة فى الاسلام ، ورسالته التى سبقت ذلك بعنوان « **نداء إلى الجنس اللطيف** » .

فالذين هاجروا وأخرجوا من ديارهم وأوذوا فى سبيلى وقاتلوا وقتلوا لأكفرن عنهم سيئاتهم ولأدخلنهم جنات تجرى من تحتها الأنهار ثوابا من عند الله والله عنده حسن الثواب .

الجزاء على قدر العمل :

لم يقف القرآن الكريم عند حد القول بأن الجزاء من جنس العمل وأنه لن يضيع عمل عامل ذكر كان أو أنثى ، لم يقف عند التقرير « **بعضكم من بعض** » بل راح يعدد أمثلة من العمل الصالح تقوم به المرأة مثل ما يقوم به الرجل ، فلا تبخس قيد شعرة ، عن نيل « **الثواب** » والثواب عند الله بالتغاضى عن الذنوب والسيئات والدخول إلى الجنة .

فالذين هاجروا :

وأول هذه الأعمال وأعظمها على عهد رسول الله وإلى أبد الآبدين ، هى الهجرة من دار الفساد والظلم والظلام ، إلى دار الخير والرشاد ، وقد ذكر القرآن بعد ذلك « **وأخرجوا من ديارهم** » فقال بعض المفسرين إن ذلك من قبيل التفصيل بعد الاجمال ، ولكننا نخالفهم فى هذا الرأى ، فقد هاجر بعض المسلمين لأول ظهور الاسلام إلى الحبشة ، وكانت هذه الهجرة اختيارية ، فرارا بدين الله من أن يصاب بسوء ، وكان من بين المهاجرين مؤمنون ذووا مكانة ومنعة فى قومهم مثل سيدنا عثمان بن عفان .

وأخرجوا من ديارهم :

وثمة فريق آخر كان لا مناص لهم من الخروج من ديارهم نجاة بدينهم وأنفسهم فقد بدأ المشركون لا يرضون بأقل من إيذاء المؤمنين ، إيذاء يتراوح بين المقاطعة والمنابذة والاضطهاد والتعذيب ، ويصل إلى حد القتل ، ولذلك فلم يلبث القرآن الكريم أن استعمل التعبير العام الذى يتناول الحالين وهو قوله تعالى :

وأوذوا فى سبيلى :

ويصبح كل من يؤذى فى سبيل الله إلى أبد الآبدين ، ممن تتحدث عنهم هذه الآية ، كما تنطبق بطبيعة الحال على كل من يخرج من ديارة وبلاده ووطنه عنوة على سبيل النفى أو الاضطهاد .

هل هناك هجرة أبدية ؟

ويبقى السؤال أيمكن أن يكون فى عصرنا الحديث « هجرة » فنبادر ونقول : من الجائز أن يقال أن الهجرة المكانية لا وجود لها اليوم ، بعد أن تشابهت الأحوال والظروف فى سائر أنحاء العالم ، ولا توجد بقعة فى الأرض تخلو من المخالفات والانحرافات وذلك على خلاف الهجرة فى صدر الاسلام ، حيث كانت مكة مستقر الشرك والوثنية والحرب على سيدنا رسول الله ومن معه ، وتحولت المدينة بعد انتقال رسول الله إليها إلى معقل الاسلام والمسلمين ، واتباع رسول الله من أوجب واجبات المسلم فالهجرة المكانية فى عصرنا الحديث أصبحت غير ذات موضوع ، ولكن ستبقى دائما وإلى أبد الآبدين هجرة المؤمن إلى الله ورسوله باتباع أوامره والانتهاء بنواهيه ، ستبقى دائما وإلى أبد الآبدين هجرة الانسان من المعاصى والذنوب إلى دنيا الطهارة والاستقامة والخوف من الله ظاهرا وباطنا .

أئمة هجرة إلى الصحراء ؟

وقد تصور قوم أن يعتزلوا الناس ويهاجروا إلى الصحراء وهو خلط وتخبط يبرأ منهما الاسلام وإذا كان بعض المسيحيين فعلوا ويفعلون ذلك ، فهو على خلاف

الاسلام ، قال رسول الله ﷺ « لا رهبانية فى الاسلام »

والاسلام دين عمل وجهاد وأمر بالمعروف ونهى عن المنكر ، وسوف تختتم السورة كلها بما يعبر عن ذلك كله **« اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون »** .

وقاتلوا وقتلوا :

وتمضى الآية لتشير إلى عنصر ثان ظهر بين اتباع رسول الله بعد هجرته إلى يثرب ، وذلك هو القتال لنصرة دين الله ورسوله ، فاذا كانت صفوة من آمن برسول الله ﷺ من أهل مكة ، قد هاجروا معه ، وأصبح يطلق عليهم اسم المهاجرين ، فان صحابة رسول الله فى يثرب ناصروه فى الحرب والقتال ، وأصبحوا يسمون بالأنصار ، وأصبحت ذروة الايمان تتلخص فى القتال ، ولا يتصورن متصوران الاستشهاد فى سبيل الله هو غاية فى حد ذاته ، كلا ، وإنما هو السبيل لنصرة الله ، أى أن الغاية هى النصرة ، ولما كان الانتصار هو ثمرة الثبات والاقدام ، وعدم الخوف من الموت ، فقد وعد الله من يقتل فى سبيل الله بما وعد . والقتال فى سبيل الله ، وعدم الخوف من الموت فى سبيله ، هو سر عظمة المسلمين وآية عزهم ، وإذا كانوا قد تدهوروا فى يوم من الأيام فلفقدانهم هذه الروح ، وإذا كنت أتفاءل بمستقبل المسلمين ، فذلك لعودة هذه الروح اليهم .

لأكفرن عنهم سيئاتهم ولأدخلنهم جنات تجرى من تحتها الأنهار :

وهذا هو جزاء المؤمنين صادقى الايمان ، أن يغفر الله ذنوبهم ، أى يسقطها ويعفو عنها ثم يدخلهم الجنة .

تجرى من تحتها الأنهار :

ولطالما استوقفنا ونحن فتية صغار التعبير بتجرى **« من تحتها الأنهار »** وربما سببت لنا بعض الارتباك فالفهم ، فتحت هى عكس فوق ، ولذلك لزم أن أنبه هنا أنها لا تستعمل هنا بهذا المعنى ، وقد اختار القرآن الكريم دائما أن يستعمل هذا التعبير ، ولكن فى القرآن الكريم كذلك ما يقطع أنها تعنى « خلال » قال تعالى على لسان فرعون : **« أليس لى ملك مصر وهذه الأنهار تجرى من تحتى »** سورة الزخرف .

وجاء فى سورة الأنعام بمناسبة التحدث عن قوم غضب الله عليهم » « وجعلنا الأنهار تجرى من تحتهم فأهلكناهم بذنوبهم » .

فدل ذلك على أننا لا يجب ان نفهم من **« تجرى من تحتها الأنهار »** غير هذه الصورة المعتادة من جريان الأنهار فوق سطح الأرض .

ثوابا من عند الله والله عنده حسن الثواب .

أى أن إدخال الجنة هو الجزاء والمكافأة التى وعد بها الله عباده الصالحين ، والله سبحانه وتعالى عنده حسن الثواب والأصل اللغوى لكلمة الثواب بمعنى الجزاء من الفعل ، ثاب يثوب ثوبا أى رجع ، وفى المجاز ثاب إليه عقله اى رجع إليه ، ومنه « جعل البيت مثابة للناس » فانهم يرجعون اليه ويعودون ، والثواب هو ما يرجع إلى الانسان جزاء عمله ، وعلى ذلك يكون الثواب لغة هو جزاء عمل الانسان سواء كان خيرا أو شرا ولكن الاصلاح جعله قاصرا على الجزاء والحسن ، كما هو الحال فى هذه الآية **« ثوابا من عند الله والله عنده حسن الثواب »** .

لا يغرنك تقلب الذين كفروا فى البلاد .
متاع قليل ثم مأواهم جهنم وبئس المهاد . لكن الذين اتقوا ربهم لهم جنات تجرى من تحتها الأنهار نزلا من عند الله وما عند الله خير للأبرار » .

مفردات :

لا يغرنك : أى لا يوهمنك بالباطل أو يخدعك ، يقال : أخذه على غرة (بالكسر) أى على غفلة منه وعدم تحرز والمعنى هو نهى المخاطب عن الأخذ بظواهر الأمور .

تقلب الذين كفروا فى البلاد : المقصود بالتقلب هنا ، أى تحرك الذين كفروا ، فى أمن ورفاهية ونعيم خلال البلاد .

متاع قليل ثم مأواهم جهنم : المتاع هو كل ما يتمتع به ، أى ينتفع به ، ووصف القرآن الكريم ما يتمتع به الكافرون أنه « قليل » فأيا كان هذا الذى يتمتع به الكافر من مال أو جاه او سلطان فهو إلى زوال محتم فان أحدا لا يأخذ شيئا من ذلك معه إلى قبره ، والحياة فى نهاية الأمر قصيرة قصيرة ، بالقياس إلى مثوى الكافر النهائى فى « جهنم » .

وبئس المهاد :

بئس ونعم كلمتان متضادتان تشير أحداهما « بئس » إلى كل ما هو سىء وشر وظلام ، ونعم ، إلى ضد ذلك من الرمز للخير والبهجة والنور .

والمعنى هنا ما أتعس الكافر بمصيره إلى النار .

المهاد : المكان الممهد الموطأ كالفراش ، ووصف الجحيم بأنه فراش ممهد للكافرين على سبيل التهكم ، وعلى أى حال فقد سبقت بكلمة « **بئس** » اشعارا بالتعاسة والشقاء .

من المخاطب بالآية : وقد دار بحث بين قدامى المفسرين عمن هو المخاطب بالآية ، أهو سيدنا محمد عليه السلام ، أم صحابته الذين هزموا فى غزوة « أحد » فقد كان يحز فى صدورهم وينغص عليهم حياتهم ، رؤيتهم للكفار فى متعة وغنى ، يروحون ويجيئون فى طول الجزيرة وعرضها .

وكان ما جعل البعض يصرف النظر عن ان يكون القول موجها إلى سيدنا محمد ، أن الآية الكريمة استهلت بكلمة « **لا يغرنك** » وقد رأينا كيف أن الكلمة تعنى ما لا يتفق وشخص سيدنا محمد وأيمانه ، ومن هنا قال البعض أنه وإن كان الظاهر أن المخاطب بالآية هو سيدنا محمد ﷺ فان حقيقة المقصود بها هم جماعة المؤمنين حول سيدنا محمد ، ورأى بعض آخر أن يستبعدوا بالكلية أن يكون الخطاب موجها لسيدنا محمد عليه الصلاة والسلام ، ونحن نرى أن كل هذه أبحاث لا غناء فيها متى كانت النتيجة واحدة فى كل الأحوال وهى الاتعاظ بما اشتملت عليه الآية

انطباقها على العصر الحاضر :

رتل الآية مرة أخرى ثم أعد ترتيلها كما فعلنا نحن ، ألست تراها وكأنها بل هى تخاطبنا نحن مسلمى أواخر القرن العشرين الا تطالبنا ، ألا يخدعنا فضلا عن أن يهولنا ويروعنا « تقلب الذين كفروا فى البلاد » ، فليسيطروا ما شاءوا على أسباب القوة ، فليزدادوا رخاء وبسطة فى العيش ، بل فليصلوا إلى القمر ، فكل ذلك قد حكم الله عليه وهو أحكم الحاكمين ، بأنه :

« **متاع قليل ثم مأواهم جهنم وبئس المهاد** » وكذا القرآن دائما ، لا يكاد يذكر النار والعذاب ، حتى يذكر بالجنة ونعيمها للمتقين والأبرار .

« **لكن الذين اتقوا ربهم لهم جنات تجرى من تحتها الأنهار نزلا من عند الله وما عند الله خير للأبرار** » .

النزل : ما يهيأ للنزيل ، والنزيل الضيف كأن الله فى كلمة واحدة ، أراد أن يعتبر المتقين الداخلين الجنة بمثابة من حلوا ضيوفا على الرحمن ، ولك أن تتصور ماذا يفعل الكريم العادى بضيوفه ، فكيف بأكرم الكرماء ومن لا يحد إكرامه حد ـ **وما عند الله خير للأبرار :** ولما كان كرم الله سبحانه وتعالى لا تحده حدود ، فهو بعد إن عبر بكلمة واحدة مدى ما سوف ينعم به « المتقون » من كرم مضيفهم ، فقد أضاف إن لديه مزيدا « للأبرار » والزيادة عند الله مقررة « **ولدينا مزيد** » ولا جدال أن البر بمعنى البار درجة تعلو التقوى ، فالتقوى هى اتقاء محارم الله والائتمار بأوامره والانتهاء بنواهيه ، وهى ليست بالشىء القليل أو السهل المنال وطوبى لمن يتقى الله فانه يرزقه دائما ويجعل له مخرجا من كل ضيق وشدة ، ويدخله الجنة يوم القيامة ، ولكن البر أو البار وهو المتصف « بالبر » الذى رسمه وفصله القرآن ، فهذا هو الذى يتقى ، ثم يزيد فأن تخرج الزكاة بحدودها الشرعية وبنية صادقة راضية ، فهذه هى التقوى ، ولكن أن تزيد على ذلك الانفاق فى سبيل الله على وجه الاحسان فهذا هو البر ، وهو ما يكافىء الله عليه مكافأة أبقى مقدارها وكيفيتها غيبا مكتفيا بالتعبير عنها بقوله تعالى : « **وما عند الله خير للأبرار وإن من أهل الكتاب لمن يؤمن بالله وما أنزل اليكم وما أنزل اليهم خاشعين لله لا يشترون بآيات الله ثمنا قليلا أولئك لهم أجرهم عند ربهم إن الله سريع الحساب** » .

ما سوف يحقق انتصار الاسلام :

هذه الآية وأمثالها فى القرآن الكريم ، هى ما حققت انتصاره الساحق لعدة قرون ، وما سوف تحقق له النصر والغلبة فى المستقبل القريب ذلك أن الاسلام ، على خلاف أى دين آخر ، يعترف بما سبقه من الأديان السماوية وما أنزل من الكتب ، ويدعو إلى الايمان بالرسل من مثل (إبراهيم وموسى وعيسى) ومع تقرير الاسلام بأنه جاء ختاما لهذه الرسالات ، ومهيمنا عليها ، ومصححا لما وقعت فيه من انحرافات ، وما غرقت فيه من أضاليل ، فان الاسلام ، لم يشأ ان يجبر اليهود والنصارى على اعتناق الاسلام ، تاركا لهم حرية الاختيار ، ولم يشأ ان يحرمهم من الثواب ، إن هم آمنوا بما أنزل على سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام وعملوا الصالحات ، وقد سبق فى سورة البقرة تفصيل هذا الموقف من القرآن الكريم ، حيال « أهل الكتاب » وها هو ذا يكرره ويؤكده فى سورة آل عمران ، وقد أوشكت على نهايتها .

« **وان من أهل الكتاب لمن يؤمن بالله وما أنزل إليكم وما أنزل إليهم** » .

قدمنا فيما سبق أن بعض قدامى المفسرين كلما عرضت لهم آية من هذا القبيل تتضمن الثناء على نفر من أهل الكتاب بادروا بالقول أن المقصود بهم هم من آمن بالاسلام من إعلام اليهود وعلى رأسهم عبد الله بن سلام ، وقد رددنا هذا القول على أساس أنه بمجرد اعتناق اليهودى أو النصرانى للاسلام ، لم يعد يوصف بأنه من « أهل الكتاب » وإنما أصبح واحدا من المسلمين ، وكالعادة كرر البعض هذا القول بمناسبة هذه الآية ، ولكن من حسن الحظ انه ورد فيها أحاديث عن سبب نزولها تدحض هذا المعنى وتؤكد المعنى الآخر من أن الله لا يضيع أجر من أحسن عملا وخاصة إذ آمن بسيدنا محمد عليه الصلاة والسلام وما أنزل عليه قال جابر بن عبد الله وأنس وابن عباس وقتادة والحسن ، أن هذه الآية نزلت فى النجاشى (ملك الحبشة النصرانى) ذلك أنه لما مات نعاه جبريل عليه السلام ، فقال النبى ﷺ لأصحابه « قوموا فصلوا على اخيكم النجاشى فقال بعضهم لبعض يأمرنا أن نصلى على علج من علوج الحبشه ، فأنزل الله الآية . (على ما روى القرطبى) وفى تفسير ابن جرير نحو ذلك .

والخلاصة أن النبى ﷺ طلب من أصحابه أن يصلوا صلاة الغائب على النجاشى (ومن هذه الواقعة تقررت سنة الصلاة على الغائب) ولم يرد فى سيرة رسول الله أن

النجاشى أسلم ، ولكنه حمى المسلمين الذين هـاجروا إليه ، وعندما سمع ما يقـوله القـرآن عن سـيدنا عيسى آمـن به وصدقه .

وأصبح القول ينصرف لليهود والنصـارى ممـن يؤمنون بمـا « أنزل إليهـم » أى التوراة والانجيل ويؤمنون فى ذات الوقت بما « أنزل إليكم » أى بالقرآن الكريم وما تضمنه من التقرير بأن التوراة والانجيل ، قد حرفا ، وأن حقيقتهما هى عبادة الله الواحـد « الذى لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفـوا أحد .

خاشعين لله لا يشترون بآيات الله ثمنا قليلا وهذه هـى آية صدقهم وأنهـم يؤمنون بالله ومـا أنزل إليكم ومـا أنزل إليهم ، انهـم خـاشعون لله والخشـوع لا يكون إلا نتيجـة الخوف من الله والتقوى .

أولئك لهم أجرهم عند ربهم :

هؤلاء الكتابيون ، ممـن يؤمنون بالله ويحسـنون العمـل ويؤمنون بما أنزل إليكم وما أنزل إليهم وآية ذلك أن تراهـم خاشعين لا يبيعون دينهم فى سبيل عرض من أعراض الدنيا التافهة ، هذا الصنف مـن الكتابيين ، « **لهـم أجـرهم عند ربهم** » أى أن ثوابهم لا يضيع ، طبقا للقـاعدة العـامة التى طالما نوهنا بها « **من يعمل مثقال نرة خيرا يره** » .

إن الله سريع الحساب .

وإذا كان التعبير بسرعة الله فى الحسـاب ينطـوى على معنى الانذار والتهديد ، فان السياق هنا يقطع بأن المقصود هو الوعد لا الوعيد ، وأن الله لا يضيع أجر من أحسن عملا ، بل إنه سريع الحساب .

يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون .

اصبروا : أمر بالصبر ، والصبر لغة هو الحبس المادى ثم اسـتعير المعنى فـأصبح الصـبر بمعنى حبس النفس عن شهواتها ، أو غرائزها ، وكل ما يقتضى العقـل حبس النفس عنه فى سبيل غاية سامية .

وصابروا : صيغة « المفاعلة » مـن صـبر ، لافـادة زيادة التحمل

ورابطوا : من الفعل ربط يربط ربطا فهو مرابط ، والمعنى اللغوى « شـده » والرباط هـو مـا يربط به ولكن الرباط ،

أصبح يعنى فى الاصطلاح الاسـلامى « مـلازمة الثغـور » والثغور هى المناطق التى قد يدهمها العـدو ، وقـد كانت فى القديم هى الحدود ، أما اليوم بعد وجـود سـلاح الطيران ، فقد أصبح كل مكان معرض لهجوم الطيران عليه يمـكن أن يكون رباطا وبالجملة فإن كلمـة « ورابطـوا » تعنى واظبوا وحافظوا على العمل الصالح والدفـاع عن أرض المسـلمين هو ذروة الأعمال الصالحة .

ختام السورة

وهكذا ختمت السورة بأعظم وأقوى ما يدعى إليه مؤمن فى مثل الظروف العصيبة التى حـاقت بالمسـلمين وقـت نزول الآية مما مضى علينا فيما سبق مفصـلا ، وكشـأن القـرآن دائمـا تشـع آياته وتنادى المؤمنين إلى أبد الآبدين ، فى كل زمان ومكان والدعوة هنا هى إلى الصـبر الجميل ، والمزيد من الصبر ، وملازمة الحذر واليقـظة على سـبيل الدوام فى مواجهة العدو

وقد وردت عشرات الأحاديث فى فضل المرابطـة فى سـبيل الله فليرجع اليها مـن يريد الاحـاطة والاسـتقصاء فى كتب الأحاديث وفى تفـاسير ابن جـرير والقـرطبى وابن كثير ، والجهاد فى سبيل الله ، هو ذروة الايمان

وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل .

ولا يمكن وقد عرض الحـديث عن الرباط والمرابطـة ، أن لا تذكر الآية المشهورة التى تأمر المسـلمين إلى أبد الآبدين بالأخذ بكافة أسـباب القـوة ، وذلك فى أمـره سـبحانه : « **وأعدوا لهم ما استطعتم مـن قـوة** » أى بآخـذ مـا فى استطاعتكم ، ويضيف القرآن الكريم « **ومن رباط الخيل** » أى الخيل المشدودة فى مرابطها على استعداد لاستعمالها فى القتال ، وعندنا إنه مهما تبدلت أسلحة الحـرب وأصـبحت دبابات وطائرات ، فان تجهيز هذا يدخل فى الشق الأول من الآية « **ما استطعتم من قـوة** » أمـا الشـق الثانى « **رباط الخيل** » فيجب دائما إعمـاله نزولا نص القـرآن ، كل الذى نتصوره أن كيفية اسـتعمال الخيل ، هـو الذى يمـكن أن يتطور ليناسب الظروف الحديثة ، ولكن إهداره كلية بمعنى أن الظروف تغيرت ، فقـول غير مقبول ، وقـد أثبتت آخـر الحروب ، ان الجندى الفرد ، سيظل هو العنصر الحـاسم ، ومن هنا فلا مناص من استخدام الخيول فى الحـرب ، وعلى العسكرية الاسلامية ، أن تبتكر استعمالات جديدة للخيول

واتقوا الله لعلكم تفلحون :

وكشأن القرآن الكريم عندمـا يواسى جمـاهير المؤمنين ، فبعد أن يأمر بذروة ما يمـكن ان يبذل مـن طـاقة تتمثل فى الصبر والمصابرة والمرابطة ، فهو يرأف بغير القادرين على بذل هذا الجهـد ، لكبر أو ضـعف وعجـز لا حيلة للمـؤمن فيهما ، فيعود القرآن ليذكر ان القاعدة العامة للنجـاة مـن النار والفوز بالجنة ، هى تقوى الله أى خشيته والخوف منه بالائتمار بأوامره والانتهاء عن نواهيه « **جهد الاستطاعة** » فهذا هو سبيل الفلاح « **لعلكم تفلحون** » .

انتهت سورة آل عمران بعون مـن الله تعـالى وتتلوهـا سورة النساء .